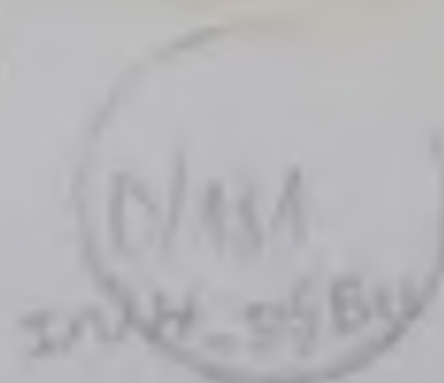


www.5599.com



المدرسة التاريخية الجزائرية

بحوث الملتقى الوطني الأول

حول المدرسة التاريخية الجزائرية



إتحاد المؤرخين الجزائريين

أحمد توفيق المدني

معلم من معالم المدرسة التاريخية الجزائرية

مدني بشير

أستاذ لمعهد التاريخ

جامعة الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيد :

سعيد أنا بمشاركتي في أول كتاب ومؤلف يصدره اتحاد المؤرخين الجزائريين الفتي، سعيد أنا أيضا حينما طُلب مني المشاركة في هذا الملتقى الكريم الذي أُختير له موضوع يتعلق بالمدرسة الوطنية التاريخية وهو من أهم المواضيع المطروحة على الساحة حاليا، وقد بحثت عن شخصية وطنية ساهمت في إثراء هذه المدرسة فجاءني زخم كبير من الأساتذة والدكاترة الذين يعود لهم الفضل في مستوانا هذا، وقد تفضل زملائي الأساتذة بذكر ثلة من أساتذتنا الكرام وحسب اعتقادي أن ذلك هو أضعف الإيمان، ورأيت من واجبي أن أتطرق إلى شخصية كُتِبَ عنها الكثير وكتبت هي أيضا الكثير، إنها شخصية - أحمد توفيق المدني - شخصية مثلت بحق جزءا هاما من هذه المدرسة الفتية، منذ العقد الثاني من هذا القرن، فهي شخصية معروفة بعلمها وورعها وشغفها - فلا تكاد تسمع بمشروع علمي أو أدبي أو سياسي أنشئ أو أُخذ في تأسيسه في البلاد - وفي أي ناحية كانت منها - إلا وترى لتوفيق اليد العاملة البناءة فيه مشاركا في تكوينه وتسويته بكل ما يملك من رأي وتدبير أو عمل وتسيير⁽¹⁾، وإنني في هذا المقام أعتذر للتعريف بهذا المعلم أكثر وإلا فاده به.

حياته:

1- مولده وطفولته:

أحمد توفيق المدني تونسي المولد والنشأة جزائري الأصل، فقد ولد يوم 24 جمادى الثانية عام 1317 هـ الموافق لـ 1 نوفمبر عام 1899 بإحدى الديار العربية بنهج الناعورة رقم 4 وهو طريق يفصل بين نهج الباشا ونهج التريبونال "TRIBUNAL" بتونس العاصمة.

كانت مدرسته الأولى أمه عائشة التي اجتهدت في تعليمه قصار سور القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية التي كانت تسمعتها من أبيها فتحفظها بأسانيدها⁽²⁾، ويقول أحمد توفيق المدني رحمه الله وطيب ثراه ".... وما كان حديثها معي إلا عن الحرام وهو كل خبيث من القول أو العمل، والحلال هو العمل الصالح الطيب، والجنة التي يرثها عباد الله المتقون، وجهنم التي هي مستقر أبدي للشيطان والذين اتبعوه بسوء، وعن الفضائل التي يتمتع بها الكرام من الرجال وعن طباع السوء التي تردي صاحبها وتهوي به إلى دركات الهلاك.

* حين بلوغه سن الخامسة إلحق بالمدرسة القرآنية والتي أنشأتها جماعة من فضلاء تونس وأسندوا إدارتها للشيخ الفاضل محمد الصغير .

-الكتاب... وفيها تعلم أشياء كثيرة غير القرآن الكريم. يحكي أحمد توفيق المدني قصة الصبي - العمري - الذي عاقبه المؤدب بالفلسفة لكونه لم يحفظ ما طلب منه فكان عقابه أكبر من صنيعه، عندها تدخل - أحمد - وقبض المؤدب من رقبتة وقال له : «هذا حرام حرام إن والده أتاك به لتعلمه وتؤدبه لا لقتله وتتكلم به.... وهكذا تلقيت أول درس عملي في حياتي وهو أن الثورة العاتية في سبيل الحق ضد الظلم والطغيان تقضي على بطش الظالمين⁽³⁾ .

وكان الفقيد رحمه الله مولع بالقراءة خاصة منها القراءة الصحفية ذلك أنه في سن التاسعة كان يقرأ جل الصحف التونسية من أشهرها " الرشدية - المرشد - التقدم - أحمد توفيق المدني

المنير - الإتحاد الإسلامي وغيرها ، وما يلفت الانتباه هو نبوغه حيث لم يكد يتجاوز سنة 15 سنة حتى أصبح مشاركا في تحرير جريدة الفاروق عام 1914 ، وقبل هذا كان قد دخل المدرسة الخلدونية بالزيتونة المعمور من عام 1913 إلى عام 1915 .

أصوله:

أصله من أبيه:

يدعى والد أحمد توفيق المدني ، محمد بن أحمد بن محمد المدني مولدا ، القبي الغرناطي من السادة الأشراف ، وقد ولد محمد - الوالد - بالحضرة الجزائرية خلال عام 1852 وتلقى علومه بالجامع الكبير مع بقية من كبار علماء الجزائر ، أما جده أحمد بن محمد فقد كان أمين الأمناء أي شيخ بلدية العاصمة الجزائرية .

أصله من أمه :

تدعى والدته عائشة إبنة عمر بويراز ، وهذا الأخير أي عمر بويراز ابن المجاهد الكبير مصطفى بويراز التركي الذي كان قائد فريق الفرسان الجزائريين في معركة أسطاوالي الشهيرة ، وتعارفا الجدان للأب أحمد وللأم عمر أثناء ثورتي المقراني والحداد أثناء توجههما إلى تونس وشاركوا واستماتا في هذه الثورة أيما استماتة . وهكذا نرى أن أحمد توفيق المدني سليل عائلتين كريمتين من كرام المهاجرين المجاهدين الجزائريين .

شبابه:

يذكر أحمد توفيق المدني أنه كان سابقا لسنة وعمره ، ففي كلامه عن صباه يقول في كتابه . "حياة كفاح" :⁽⁴⁾ «وهل كنت حقا صبيا ؟ إنني لفي شك من ذلك مريب ! ... لم أكن ألعب مع الأطفال وأنا أسمع من وراء أبواب المنزل لغطهم وصراخهم ...»

فقد كان يجمع إليه الكثير من أصدقائه يأتون إلى بيته كل يوم جمعة ويتكلمون هناك كلام الكبار خاصة حول ما يجري في العالم ، ثم يتم الافتراق بإحراق الراية الفرنسية .

المدرسة التاريخية الجزائرية

ويذكر أحمد توفيق المدني أنه عاش أحداثاً عصيبة جداً منها الانقلاب العثماني ضد السلطان عبد الحميد عام 1909 وأحداث الزلازل⁽⁵⁾ عام 1911، وكذا بداية الحرب العالمية الأولى عام 1914، وبالموازاة مع هذا كان أحمد توفيق المدني كثير النشاط في المجال الفكري الثقافي فقد كان مشاركاً في تحرير جريدة الفاروق منذ عام 1914 وكتب فيها عدة مقالات تحدث فيها عن المرأة والنضال، لكن أهمها كان المقال الرابع عنوان "كيف نتقذ وطننا" في 27 أوت 1914 وهو لم يبلغ بعد سن "15"، وفي المقال تحدث المدني عن أسباب تعاسة الشعب التونسي وربطها بثلاثة أسباب، أولها تركنا لديتنا، وثانيها مخالفتنا لعاداتنا، وثالثهما أننا ضيعنا لغة أبائنا وأجدادنا لغة ديننا الإسلامي، ويقترح من أجل ذلك أربعة حلول، أولها تعليم البنات، وثانيها تعليم اللغة العربية ونشرها وثالثها إحياء العلوم ونشرها ورابعها ترك الكسل والإقبال على تعلم الصناعات مهما كانت، ويتساءل بحزن: «بالله ما ضرنا لو كان فينا مهندسون؟ ما ضرنا لو كان فينا كيميائيون من جنسنا؟»⁽⁶⁾.

خلال الحرب العالمية الأولى يتصل أحمد توفيق المدني بأربعة مناضلين تونسيين وهم أحمد نجاح محمد النيفر، محمد السعيد الخلصي، الهادي مزاح لكي ينظم تنظيماً ثورياً ضد فرنسا المتجبرة وبعد اجتماعات متعددة وضعت خطة مبنية على سبعة مبادئ وهي (بث دعاية ضد التجنيد، التغلب على موجة اليأس، الإتصال بقبائل بني زيدان من الجنوب - مهاجمة الحامية الفرنسية بقفصة والحامة - الإتصال بالطلبة الجزائريين بالزيتونة، تحريك الطاقات بالمغرب العربي، إنشاء شفرة خاصة للإتصال بين المناضلين)، وكان المدني كثير الاتصال بالجنوب خاصة قفصة والحامة بحجة المتاجرة في التمور والحقيقة أنه كان يهيئ لتنظيم ثوري من خلال هذه الاتصالات خاصة بالشيخ علي فارس من قبائل بني زيد.

سجنه :

لكن نشاط المدني إكتشف من بعض الخونة وعلى رأسهم "البشير بوخريص" وهو جاسوس يعمل لصالح فرنسا يوم 1915/02/14 جاءه وأخبره أن سيدي يريد مقابلته أحمد توفيق المدني

وعند خروجه التقى بجمع من الشرطة على رأسهم محافظ الشرطة السياسي الكوميسار (كلايبي) الذي فتش بيته ثم أستنطقه لكي يحوّل إلى القضاء العسكري لسجنه، لكن لم يحوّل وسجن هناك لمدة أربع سنوات تقريبا خرج على إثرها في 1918/11/01 تزامنا مع نهاية الحرب العالمية الأولى، وما يجب ذكره أن المدني استفاد بشكل كبير من هذا السجن فهو يقول : ⁽⁷⁾ «إنتي لم أكن مظلوما حينما رُج بي في السجن، فلم يُعتد عليه وإنما هو الذي اعتدي على الإستعمار البغيض - كما أنني أحسنت استعمال سنوات السجن فقد تعلمت المطالعة والدراسة ونهلت من علوم الدين والعربية، وعلوم الحياة، وكذا تعلمي للفرنسية - كما أنني كنت على اطلاع تام بما يحدث في العالم وأنا داخل السجن، كما أن للسجن فضل صحي علي فمن رأيي اليوم ⁽⁸⁾ وأنا في الخامسة والسبعين أُمِرِح وأحمد الله بين أحضان الصحة والسلامة وأرتع في حدائق البهجة والانشراح لا يخطر بباله إطلاقا أنني تجاوزت الستين كما أن السجن مهد لي مكانا محمودا بين قومي ومركزا ممتاز في العالم الإسلامي ...»

وهكذا نرى أحمد توفيق المدني قد بدأ نضاله في تونس الشقيقة دفاعا عنها حيث لم يكن يؤمن بالأوطان والحدود في العالم الإسلامي وقد كلفه ذلك السجن منذ طفولته وشبابه ذلك أنه اعتُقل وسنه يصل 14 و3 أشهر و3 أيوما .

نفيه إلى وطنه الجزائر :

بعد النشاط الفكري الكبير الذي قام به أحمد توفيق المدني إثر خروجه من السجن وهو نشاط تميز بمواجهة فرنسا خاصة، فقد بدأ في التأليف من خلال أول كتاب له عام 1922 وهو " تقويم المنصور "، كما نشط المدني من أجل إنشاء لجنة الخلافة الإسلامية ومقرها إسطنبول بعد سقوط الدولة العثمانية وكانت له اتصالات كبرى في هذا المجال ومراسلات مع الخليفة علي عبد المجيد، كما حاول رفقة مجموعة من المناضلين التونسيين " زين العابدين السوسي - عثمان الكفاك - الطاهر صفر - محمد بن حسين " إنشاء المجمع العلمي التونسي في ماي 1924 لكنه لم يتمكن من ذلك، وساهم بشكل فاعل في شهر رمضان المعظم عام 1342هـ (1924) في إنشاء الرابطة القلمية .

للدرسة التاريخية الجزائرية

وكانت للمدني أنشطة مسرحية من خلال (فرقة السعادة) التي ترأسها ، أما الإدارة فكانت للممثل القدير عبد الجليل الأرناؤوط، ومن أشهر رواياتها " طارق بن زياد " التي منعت، وكذا " نكبة الأندلس " من هنا بدأ " إزعاج " المدني للسلطات الفرنسية يظهر بشكل واضح وما زاد في ترسيخ هذا الطرح مقاله عن ثورة عبد الكريم الخطابي " الذي نشره في جريدة (إفريقيا) يفضح فيه السياسة الاستعمارية الفرنسية ويمجد ثورة الريف، وهي النقطة التي أفاضت الكأس. هكذا قاعت السلطات الفرنسية من خلال ممثلها " لويسيان " بتوقيع قرار النفي ففي الساعة الثانية زوالا من يوم السبت 1925 جاء " البشير بوخرصة " مرة أخرى إلى بيت أحمد توفيق المدني، وطلب منه الحضور إلى مركز الشرطة لملاقاة السيد " كمبانا "، ويقول المدني الذي أبلغني بأمر النفي - تنفيذا لأمر ملكي صدر منذ القرن 17 المتعلق بنفي رعايا المشرق العربي - وهكذا استدعي الأخ الأصغر ⁽⁹⁾ للمدني وهو حسن الذي علم بالنفي وكان سعيدا بذلك حيث قال ⁽¹⁰⁾: « لنعم النفي إلى بلد الآباء والأجداد بلد التضحية والجهاد » وبعد أن اقترض قسطا من المال - 1000 ف - ف - بوصل استلام من " كمبانا " سيق المدني إلى سيارة نفته أول مرة لبلد أجداده وكان نزوله بعناية ثم قسنطينة، ودخل معتركا آخر من الحياة في بلده الأصلي وهو لم يتجاوز بعد 25 سنة، فقد احتضنه وطنه أيما احتضان، احتضنته الجزائر فكان نحرا لها كما كان لتونس كذلك ، ولما علم التونسيون بنفيه ثارت ثائرتهم. إن نشاط المدني في بلده كان كبيرا ولا يتسع المقام لذكره لكنني أكتفي بالقول أنه واصل الكتابة والتأليف وشارك في الحياة الثورية والسياسية لاحقا، فقد كان من المساهمين في تأسيس جمعية العلماء عام 1913، وقبلها نادي الترقّي عام 1927 كما أصبح أمينا عاما للجمعية عام 1914، وعلى إثر مؤتمر الصومام عين عضوا للهيئة السياسية بالخارج وممثلا لجبهة التحرير الوطني بالقاهرة كما شغل منصب وزير للثقافة بالحكومة المؤقتة منذ 1958، وفي عام 1961 أصبح وزيرا مفوضا بالجامعة العربية، وفي 6 أوت 1962 عين وزيرا للأوقاف وكان له دور أساسي في فتح معاهد التعليم الأصلي لأول مرة بالجزائر، هاته المعاهد التي كونت الكثير من الإطارات الوطنية المخلصة للدين والوطن وقد تمكن من فتح 17 معهدا إسلاميا. ⁽¹¹⁾

أحمد توفيق المدني

وقد تقلد المدني مناصب أخرى سامية ببلده ففي سنة 1966 عُيِّن سفيراً بإيران، وفي سنة 1967 انتُخب عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة ما بين عامي 1967-1970، وكان سفيراً بالعراق وتركيا والباكستان عام 1971. ومن هنا اكتسب تجربة دبلوماسية كبيرة.

وفاته:

أن بلوغه مرحلة السبعينات عاد إلى الوطن حيث عُيِّن مستشاراً مؤرخاً للمركز الوطني للدراسات التاريخية (CNEH) وكان مشرفاً على القسم العثماني وبقي به إلى أن وافته المنية ثم الثلاثاء 18 أكتوبر 1983 عن عمر يقارب 84 سنة، قضى منها حوالي 58 سنة بوطنه الجزائر يبذل ما يبذل من عطاء علمي وتاريخي خاصة فما تركه لنا هذا الرجل لا تستطيع الأقلام أن تذكره ولا أستطيع من هذه المداخل المتواضعة أن أنصفه، ولكنني أكتفي بشهادات غيري حوله.

شهادات حول هذه الشخصية الفذة :

يُعتبر أحمد توفيق المدني من أوائل المؤرخين الجزائريين، وهو من القلائل الذين عرفوا بالتاريخ الجزائري داخليا وخارجيا، وقد شهد له بذلك الكثير، أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

1- الشيخ عبد الرحمن الجيلالي:

بعد حوالي ستة أشهر من وفاته كتب الشيخ عبد الرحمن الجيلالي في إحدى المجلات⁽¹²⁾ تحت عنوان⁽¹³⁾ "مزية الأستاذ أحمد توفيق المدني على تاريخ شمال إفريقيا"، وإن شهادة هذا الرجل موثوق بها علميا وتاريخيا بل الأكثر من هذا أنه عاشه أزيد من نصف قرن، ومما يذكره الشيخ عبد الرحمن الجيلالي "... حينما ضاق صدر حكومة الاستعمار الفرنسي في تونس بالأستاذ النابغة أحمد توفيق المدني ... صممت على أخذ مسلك الإبعاد من تونس إلى الجزائر ولم تدر - أو تكن تدري - أن موطن أبائه وأجداده كان ينتظره، فحل بها مكرما ومعظما عام (1925) ... وكان المدرسة التاريخية الجزائرية

رحمه الله في حركة دائمة دائبة لا يفتر ولا يكل ولا يمل فكلما كان هناك مجال فسنيح
 يرى لنفسه فيه فسحة للعمل الصالح العامل، فيفيد ويستفيد إلا ويبادر مسرعاً إلى
 المشاركة في ذلك المجال ... ماذا عسى لي أن أحصي أو أعد مواقفه المشرفة في هذا
 الميدان ؟ فهذه مجامع وجمعيات وهذه نواد وندوات وهذه مشاريع ومؤسسات، وهذه
 مسامرات ومحاضرات وهذه منظمات ... وكان فيما خبأ له القدر من النعم ليمتاز بها
 بين أقرانه الباحثين وليكون له القدم الأولى أن ألهمه الله إلى القيام بوضع تاليف انفراد
 به فيه وحده بين جميع من سبقه من العلماء الباحثين حملة القلم العربي، وهو كتاب
 تاريخ المغرب قبل الإسلام ونعني به قرطاجنة في أربعة عصور - أو تاريخ شمال
 إفريقيا من عصر الحجارة إلى الفتح الإسلامي - المطبوع في تونس عام 1927 ...
 فكتاب قرطاجنة جاء يوسع وأعمق، فهو دراسة معمقة وتحليل وتعليل لقضايا الشمال
 الإفريقي فيما قبل الإسلام ويبحث استقصائي شاذ في تاريخ جميع الشعوب والأمم
 والدول التي تعاقبت على هذا الوطن عرقياً وسياسياً واجتماعياً وثقافياً وحضارياً
 وعسكرياً ومدنياً، وحرباً وسليماً ... هكذا كان كتابه هذا ... فهو المرجع الوحيد في باب
 والمصدر الأصيل في فنه الذي انطلق منه جميع كتاب العرب ممن خاض منهم في هذا
 الموضوع وألّبه عابوا وقالوا إن المؤلف رحمه الله قام بتأليفه لهذا الكتاب بأداء مهمة
 تاريخية خالدة خدم بها أمته ووطنه العزيز خدمة لم يسبق إليها أحد قبله ... ولم يقف
 الجيلالي في ذكره لهذه الشخصية الفذة عند هذا الحد بل ذكر أيضاً ... وهناك
 صنيع آخر حاز به قصب السبق أيضاً، وذلك صنيعه فيه أخرجه للناس من دراسة
 مفصلة لفرع آخر من فروع العلم والمعرفة وهو فرع حساس يتصل بأعماق ومشاعر
 سكان المغرب الأوسط منهم بالخصوص - الجزائر - ذلك هو كتاب جغرافية القطر
 الجزائري المطبوع بالجزائر عام 1948، فقد أفاد به النشأ الجزا ئري بالمدرسة العربية
 أيما إفادة وحتى خارج المدرسة العربية ... فلولوا المدني ما عرف الزمان ولا عرفوا
 وضعية بلادهم جغرافياً ولا سياسياً ولا طبيعياً ولا إقتصادياً فيفضل المدني عرف
 طلاب المدارس العربية وغيرهم كل ذلك فكان لهم في هذا المصنوع - رحمه الله - القدم
 السابقة والمزية الظاهرة ...

هكذا نرى شهادة أحد أهم المؤرخين المعاصرين اتجاه شخصية المدني رحمه الله، فهو يعترف له من خلال كتابي تاريخ المغرب قبل الإسلام، وجغرافية القطر الجزائري أنه رائد المدرسة التاريخية خاصة حينما يذكر الكتابان الأولان اللذان وضعنا في هذا المجال وهو ما يزيد في تأكيد الدور الإيجابي لهذا الرجل في المدرسة الوطنية التاريخية.

3- شهادة الدكتورة أنيسة بركات - درار - المجاهدة :

تطرقت الأستاذة الفاضلة بمناسبة وفاة الشيخ توفيق المدني، وفي كلمة تأبينية «... يشرفني أن أساهم مع الباحثين بهذه الكلمة، نرفعها بقلوب خاشعة ترحماً على أبنينا الروحي وأستاذنا المبجل الشيخ توفيق المدني الذي جمعنا وإياه منذ عشر سنوات درب البحث العلمي فسار معنا جنباً لجنب في المركز الوطني للدراسات التاريخية ولم ينحن إلا أمام القضاء المحتوم إنا لله وإنا إليه راجعون ، إنه أحد أبناء الجزائر البررة الذين كرسوا حياتهم من أجل عزة وكرامة وطنهم. كان رحمه الله عالماً لا يُشَقُّ له غبار وشخصية فذة جديرة بالاحترام والتقديم كلامه حكمة وعلمه جهاد . إكتسب بجهده وكفاحه وعنايه المتواصل بدون هوادة علماً واسعاً وثقافة رفيعة وضرب بسهم صائب في الجهاد الصحفي والفكري ... ويعد من البحاثة البارزين الذين قامت على أكتافهم النهضة التاريخية في بلادنا خلال فترة خطيرة، وكان أول وزير للتربية والتعليم، إنه أديب وكاتب معتنز وخطيب مصقع له مؤلفات قيمة في التاريخ والجغرافية وله مقالات شيقة مناهضة للاستعمار ولفائدة العلوم والمعرفة ...»⁽¹⁴⁾

2- (15) شهادة مبارك بن محمد الميلي - رحمه الله - هي (16) رسالة بعث بها الميلي إلى المدني يتحدث فيها عن المساعدة التي يمكن أن يقدمها المدني للميلي حيث يقول «... أخي العزيز نابغة العصر وفخر القطر وغوث الوطن سيدي أحمد توفيق المدني السلام عليكم ورحمة الله ... لقد كان سروري برسالتكم عظيماً لا من حيث صدق الوعد المنبث في جميع حروفها فقط بل من حيث هناؤك أيضاً وتفرغك للأعمال المنتجة فقد استشعرت أنكم في سعة وقت وهناء بال، ومثلك من نود له بكل قلوبنا راحة من المدرسة التاريخية الجزائرية

الشواغل، لا الكسل - أعاذك الله - بل للعمل الصالح الخالد ... ويشير الميلي في نفس الرسالة إلى حاجته إلى ترجمة وتوجيه، يساعده فيها أحمد توفيق المدني في كتابه " تاريخ الجزائر القديم والحديث " وهو من أهم وأشهر الكتب التاريخية.

إن شهادة الميلي الإيجابية تبين بحق مدى عظمة هذا الرجل ومكانته في التاريخ الوطني .

4- شهادة الدكتور جيلالي صاري :

أشار الأستاذ إلى أهمية " كتاب الجزائر " الشهير، وقال في مقدمته كلمة⁽¹⁷⁾ لا بد من إبراز الأهمية العلمية والوثائقية وحتى البيداغوجية بالأخص لإنتاج فقيه الجزائر والعروبة والإسلام - الشيخ توفيق المدني - وهي تلك الشخصية الفذة الفريدة من نوعها خلال هذا القرن والتي جذت كل قواها وإيمانها منذ مطلع هذا القرن وهو مقيماً بالقطر التونسي الشقيق...»، وبعبارة أخرى أشار الأستاذ إلى أهمية كتاب الجزائر كونه وثيقة ثمينة حول وضعيّة الجزائر، وكذا أهميته البيداغوجية، ذهب إلى الإشارة إلى إيجابية هذا الكتاب على المعلمين والأساتذة والشعب الجزائري مستشهداً بكلام الشيخ أحمد توفيق المدني حيث يذكر: « ... رأيت الشجرة الكبيرة وقد دخلت أغصانها وتناثرت أوراقها من شدة الظمأ واشتباقت قطرة الماء التي هي أملها الوحيد في الحياة وهي الواقية لها من الموت، تلك هي أمة الجزائر وذلك هو اشتياقهم للتعليم...» وهو كلام مأخوذ من كتاب "الجزائر" للمدني - 282- وفي الأخير يشير الأستاذ: « ... لا زال نداء المؤلف يرن في أذاننا ولا زال في بسمات الكتاب تلك البسمات المتفائلة التي عُرف بها إلى آخر حياته المليئة بالكفاح وحب المعرفة والعلم ... رحم الله هذه الشخصية الفذة ».

وغير هؤلاء هناك شهادات كثيرة من الداخل والخارج للذين عايشوه كآب سعد الله،⁽¹⁸⁾ أو فكري طونا، إن المجال لا يتسع في الحقيقة للتحدث عن كل ذلك، كما يجب أن أشير إلى دور الأدباء الذين ذكروا في أشعارهم شعادات تبين مدى عظمة هذا الرجل من ذلك:

أحمد توفيق المدني

1- عبد الكريم العثون الذي يقول:

كفاحك أحمد يطوي السنين! فسل عنه يا ليت، هذا العرين
لقد نددت عنه العدى ثابتا أمام الأعاصير والظالمين
وكافحت يابطلا خالدا عن العرب تحمي حماهم أمين
فأمعنت في المجد تبغي الخلود كأجداد العرب الخالدين

2- أحمد سحنون يقول فيه : (20)

يا جـمـال البـصـائر وجليل المائر
وجـدير بأن تكون إمام الجـرائر
سـوف تغـلبو بخـير سـعـيك
خـير الجـرائر
سـوف يأتـي صـباحها
بـعد هـدي البـداجـر
مـؤننا بانـت صـارها
مـعلنـا للبـشـائر
أنت (توفيق) أمة شفقت بالمفاخر
لك إلهام فيلسوف وإحساس شاعر

3- أبو القاسم سعد الله يقول " قصة عملاق "

فأنبرت تأسو الجراح الرافعات	وتغني للشعوب الزاحفات
نحو آمال فسيحة أنشدات	نابضات بالحياة
من لهــــــــــــــــة الأطلس	من رواي السندس
من صــــــــــــــــدي وهران	حــــــــــــــــتى تونس
هذه قصة عملاق خطير	إنها قصة (توفيق) الكبير

4- مفدي زكرياء يقول فيه:

شاكر الفضل ليس يعدم شكرا	خلدوها إذن لأحمد ذكرى
واكتبوها وليقرأ الجيل منها	في كتاب جزائر اليوم سطوراً
واذكروا اليوم وهو عيد الضحايا	والضحايا رمز الضحايا الأبرأ
والثلاثين قد قضاهما نضالاً	وجلادا تخالها اليوم شهراً
عامرات بالجد أن تنتشروها	تنتشر في ذرى الجزائر عطراً
والتقاويم ⁽²¹⁾ والبصائر والنادي ⁽²²⁾	وعثمان ⁽²³⁾ والكتاب الأغر ⁽²⁴⁾
خالدات على الزمان بواق	كالمتلثاني تفيض نوراً وطهراً

هذه مقتطفات بسيطة إنتقيتها لشعراء عظام مجّدوا هذا الرجل العظيم وهو أقل شيء يقدم لرجل وهب نفسه وحياته لدينه ووطنه مدة 70 سنة تقريباً⁽²⁵⁾ ، فهو بحق عملاق كما لقبه أستاذنا الفاضل الكبير أبو القاسم سعد الله - أطال الله عمره وأعاده سالماً - عملاق بمواقفه، عملاق بدوره، عملاق خاصة بإنتاجه وكتابات التي كانت بحق نوة للمدرسة الوطنية التاريخية.

إنتاجه ومؤلفاته :

عادة ما يرتبط اسم هاته الشخصية الفذة بإنتاجها الوفير خاصة في مجال الجهاد والنضال ضد الإستعمار الغشيم، فبغض النظر عن مواقفه الشجاعة ضد الاستعمار والتي كلفته السجون والمعتقلات، كانت كتاباته هي الأخرى من الأسباب الرئيسية المؤدية لسجنه ونفيه، ذلك أن كتاباته عديدة كما قلت وغزيرة ومتعددة النواحي فهو لا يكتفي بالكتابات الحزبية السياسية⁽²⁶⁾، أو الكتابات الصحفية فوق أعمدة المجلات والصحف أو بالخطابة المستمرة في النوادي وشعب الحزب، بل انتقل إلى باب التأليف والنشر لاحقاً.

إن بداية المدني كانت في المجال الصحفي منذ 1914 وعمره حوالي 15 سنة حيث كان مشاركا في تحرير جريدة⁽²⁷⁾ الفاروق بتونس، ثم نشر أول مقال له بمساعدة زميله التونسي زين العابدين السنوسي صاحب المطبعة، تحت عنوان "رسالة تونس إزاء جمعية الأمم" وضعه دفاعاً عن تونس في حقها بالانتماء إلى المجتمع الدولي، وقد اختطفتها الأيادي في مدة وجيزة، كما كتب مقالا آخر في شكل رسالة بعنوان "الحرية ثمرة الجهاد، تاريخ كفاح إيرلندا" وحدث ما حدث "لرسالة تونس" من اختطاف وشراء فأعاد نشرها في (مجلة الفجر). بعد هذا ينتقل المدني إلى التأليف بصفة هادفة ومتتالية ومن هنا بدأ نجمه يلمع في تونس أولا لكي ينتقل لاحقاً إلى وطنه الجزائر، وأول ما كتب كان "تقويم المنصور" سنة 1922 وعمره لا يتجاوز 23 سنة وبه 320 صفحة، وقد قسمه إلى 13 باباً وبه 34 صورة (باب القسم الفلكي - باب المباحث العلمية - باب بساتين العلوم - مرآة العالم - باقة من رياض الأدب - العالم الإسلامي - أشهر الحوادث وأعظم الرجال - العالم الاقتصادي - القسم السياسي - عرائس الأفكار - العملة والمكايل والمقاييس - مطبوعات السنة - في عالمي المشرق والمغرب) ذلك هو كتاب "تقويم المنصور" الذي يعتبر من أرقى ما جاءت به قريحة الإنسان آنذاك وهو ما يفسر فقدانه من السوق في وقت وجيز وهو ما حفز المدني على المواصلة في هذه الطريق، فقد أنتج آخراً بنفس العنوان عام 1923 وآخر عام 1924 وآخر عام

الدرسة التاريخية الجزائرية

1925، وأصبح الكتاب في خمسة أجزاء وكل جزء أكثر تطوراً من الآخر، فالجزء الثاني مثلاً به 63 صورة وبه ترجمة أسد بن فرات فاتح صقلية... إلخ.

وقد كتب المدني الأجزاء الثلاثة الأولى بتونس أما الرابع والخامس فكانا بالجزائر وهو بحق كتاب موسوعة دام 8 سنوات في الصدور (1922-1930)، بالتوازي مع ذلك يصدر كتاب "قرطاجنة في أربعة عصور" أو "تاريخ شمال إفريقيا قبل الإسلام"، وقد طبعه في تونس عام 1927 بعد نفيه ويُعتبر هذا مؤلفاً فريداً⁽²⁸⁾ من نوعه لم يسبقه إليه أحد.

بعد ذلك بحوالي أربع سنوات أي سنة 1931 يأتي كتاب الجزائر "فهو كما يقول عنه المدني نفسه" أنه كان فتحاً مبيناً نزع عن الشعب كل الشعب غشاوة الجهل المطبق⁽²⁹⁾، فهو بحق كتاب فريد من نوعه هو الآخر ذلك أنه شمل وعرف لأول مرة بجغرافية المنطقة وتاريخها ومجتمعها، وهو الآخر تحد لفرنسا في ذاكرتها المعنوية لاحتلال بلادنا، وخير ما أختتم به تعريفني لهذا الكتاب قوله: ⁽³⁰⁾ "فتقبله مني أيها الشباب المسلم الجزائري عملاً خالصاً لا أريد عليه جزاء ولا شكوراً..." - وإنني أنصح القارئ الكريم بقراءة تلك الخاتمة المشوقة التي وضعها في كتاب الجزائر⁽³¹⁾.

مرت الجزائر بمرحلة تغيرات كبيرة "ظهور جمعية علماء عام 1913 - وبروز اليسار لفرنسا عام 1935، والمؤتمر الإسلامي عام 1936 وحزب الشعب عام 1937 والمدني يتابع كل ذلك لكي يخرج لنا بكتاب مهم سنة 1938 تحت عنوان "محمد عثمان باشا داي الجزائر" وقد يتساءل البعض عن هذا الكتاب الذي جاء ليبين أمرين أساسيين:

أولهما: أن المدني كان بين ما يقع في الجزائر في عهد هذا الداي من عمل مُشرق ومُشرف، وبين ما يحدث في أوروبا وأمريكا من اضطرابات وفوضى.

ثانيهما: أن الكاتب وضع مقدمة مطولة فنّد فيها الأكاذيب الأوربية حول دور الأتراك بالجزائر بطريقة علمية وموثقة ومن جملة ما يذكر مثلاً: "إن حالة التعليم في الجزائر خلال ذلك العهد كانت أرقى وأوسع مما هي عليه بعد مائة سنة من احتلال فرنسا وأن الأمية عندنا أقل مما هي عليه سنة 1937..."

أحمد نوبيق المدني

هذا الكتاب كذب فيه إنن كل الادعاءات الفرنسية التي أرادت تشويه الحكم العثماني بالجزائر وماتزال أصوات نسمعها إلى اليوم تصب في هذا المنحنى للأسف.

يتوقف المدني فترة عن الكتابة لظروف موضوعية (الحرب العالمية الثانية) لكي يعود إليها مرة أخرى عام 1946 من خلال كتابه "المسلمون في جزيرة الصقلية وجنوب إيطاليا" وهو كتاب مقارنة بين صقلية قبل الإسلام و صقلية أن الإسلام، كيف كانت مظلمة في العهد الأول وكيف أشرقت في العهد الثاني بالعمران والتسامح وكيف شيدوا في مدينة باري إمارة مزدهرة، والكتاب في تسعة أقسام خص فيه القسم الأخير بالعلوم والآداب وتحدث عن 34 عالماً من أعلامها مثل محمد بن علي المازري وأسد بن قرات وغيرهما كأبي عبد الله محمد الإدريسي الحسني الطالبي، وابن حمديس الصقلي.

ووضع الشيخ توفيق المدني على ذمة المؤرخين والمكتبات العلمية مؤلفات أخرى كجغرافية القطر الجزائري سنوات 1948/1952/1964 وكتاب "هذه هي الجزائر" عام 1957، و"حنبل" مسرحية تاريخية عام 1950، وكتاب "حرب الثلاثانة" سنة (1492-1792) ضد الإسبان في طبعتين الأولى 1968 والثانية عام 1975، ومذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، ومؤلفات أخرى يزيد عددها عن 20 مؤلفاً، هذا دون الإشارة إلى كتاباته الأخرى المتعددة والتي لا يتسع المجال لذكرها.

وفي الحقيقة قد لا نجد مفاضلة بين مؤلفات هذا الرجل الغد وإذا ما تحتم ذلك فإن مؤلفه الشهير "مذكرات حياة كفاح" في أجزائه الثلاثة هو أهمها حسب اعتقادي، فالجزء الأول يشمل حياته في تونس منذ 1905 إلى 1925 و به 351 صفحة تقريباً والثاني يشمل حياته بوطنه الجزائر من عام 1925 إلى 1925 إلى 1954 و به 435 صفحة حين اندلعت الثورة المباركة والجزء الثالث مع ركب الثورة التحريرية و به حوالي 600 صفحة، وحسب اعتقادي أن هناك جزءاً رابعاً.

إن مذكرات حياة كفاح^{٣٢} يُعتبر من أهم ما كتب من الكتابات التاريخية وإنني أعتقد أن المؤرخ أو الدارس للتاريخ لا بد له أن يمتلك هذا المؤلف⁽³²⁾ خاصة ذاك الذي يتعلق بدراسة تاريخ شمال إفريقيا وبالأخص تونس والجزائر وإن كتاب "تقويم المنصور" هو بحق تحفة من التحف التاريخية النادرة، ولا أقول التاريخية فحسب وإنما السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية كذلك، كذلك الشأن بالنسبة لكتاب الجزائر وكتاب "محمد عثمان باشا داي الجزائر" وحرب الثلاثمائة سنة 1492 - 1792.

إن القائمة لا تنتهي إذا ما عددناها وذكرناها فهي طويلة جدا تبين بحق أن الشيخ أحمد توفيق المدني أفنى حياته من أجل التاريخ لوطنه ومن أجل عزته وقد انطبق عليه القول المأثور " في حياة كل أمة رجال وهبوا أنفسهم للعلم والفكر فافتنوا حياتهم في سبيل ذلك " ذلك هو أحمد توفيق المدني، ذلك العلم من أعلام العروبة والإسلام والوطنية الصادقة فمن منا لا يعرفه ؟ إنه الرجل المتواضع البسيط الورع، فرغم مكانته نراه يصرح ببساطة : «إنني وإن كنت قد هبأت للثورة منذ أمد بعيد، لم أكن قائدا من قاداتها ولا بطلا من أبطالها، بل كنت خادما لها مطيعاً لأوامرها منذ اليوم الأول...»، كما يشير إلى نقاء سريرته بصراحة فهو يقول : «إنني طيلة أيام كفاحي في سبيل الحرية والإستقلال وخاصة أيام حربنا التحريرية الكبرى، لم أشترك أصلا، أبدا في أي دسيسة أو مؤامرة تحاك من قبل فرد أو جماعة ضد فرد أو جماعة أخرى ». هذا هو أحمد توفيق المدني الرجل العالم الباحث الذي ينزل مستواه إلى دون كيف لا وهو الذي أخذ البلاغة عن الشيخ محمد بن يوسف، والتفسير عن الشيخ النحلي، والفقه عن الشيخ الصادق النيفر والنحو والصرف عن الشيخ محمد بن القاضي وعلمه الشيخ محمد بن شعبان المنطق والفلسفة والشيخ معاوية التميمي أداب اللغة العربية، لقد كان يدرس وهو طالب عشر ساعات في اليوم، وعليه ألاحظ تجميع عوامل عديدة ساعدت على نبوغ هذه الشخصية مثل " البيئة التي نشأ فيها، والفكرة الإسلامية الصحيحة التي اعتمدها منذ صغره، كما أن الظروف الدولية الكبرى التي عاشها أعطته تجربة قوية، يضاف إلى هذا مولده ونشأته خارج وطنه زاده حبا لوطنه وحنينا له.

أحمد توفيق المدني

الخاتمة :

أيها السادة الكرام، أيها القارئ الكريم، هذا جزء قليل من حياة هذا الرجل العظيم الذي وهب نفسه لدينه ووطنه العربي الإسلامي، وإنني محصر على القول أنه جزء قليل لا غير ذلك أن نضال 70 سنة يستحال حصره فيما بين هذه السطور فقد قضى الرجل عمره في الجهاد والنضال منها إحدى عشر سنة بتونس - من 1914 إلى 1925 - تاريخ نفيه، ومنذ هذا التاريخ والرجل يصول ويجول بكل ما أوتي من علم ومعرفة فقد ألف الكثير من الكتب وغيرها والتي ما تزال تُعتمد اليوم من المصادر الهامة الرئيسية المعتمدة كتقويم المنصور، وكتاب الجزائر و"حياة كفاح" ... إلخ.

إنها فعلا حياة كفاح نذرها لوطنه غلماً وفكراً، كما نذرها جهادا ومقاومة أن اندلاع الثورة المباركة، بل وحتى في عهد السيادة نراه قد وهب نفسه لخدمة هذا الوطن، وحينما تقدمت به السن لم يكل ولم يمل بل استقر بمركز الدراسات التاريخية مدة تسع سنوات إلى أن وافته المنية. فما أحوجتنا في زمن الرذالة هذا إلى مثل هؤلاء الرجال.

أخيرا أتمنى أنني وفقت في تقديم هاته الشخصية الشامتة كجزء من بناء مدرسة وطنية جزائرية.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب والسلام عليكم ورحمته تعالى وبركاته.

الأستاذ مدني بشير

معهد التاريخ - جامعة الجزائر

المصادر والمراجع المعتمدة :

بالعربية

- 1- المدني توفيق أحمد - حياة كفاح - مذكرات الأجزاء (1 : 2 : 3)
- 2- مجلة التاريخ - المركز الوطني للدراسات التاريخية السداسي الأول لسنة 1985 - رقم 18.
- 3- مجلة الثقافة - وزارة الثقافة عدد 77 - سنة 1983.
- 4- جريدة الشعب اليومية الأربعاء 19 - 10 - 1983.
- 5- جريدة الصباح التونسية الخميس 19 - 10 - 1983.

بالأجنبية :

1-Journal l' action Tunisienne Journee 18-10-82 Dossier N 1 " HOMMAGE
A NOTRE PATRIOTE EL MADANI AHMED TEWFIK

الهوامش :

- 1- عبد الرحمن الجبلاي - مجلة التاريخ - المركز الوطني للدراسات التاريخية - سداسي 1985 -
رقم 18 - ص 24
- 2- أحمد توفيق المدني - حياة كفاح - مذكرات - الجزء الأول - تونس 1905 - 1925 ص 18 -
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - بلون تاريخ -
تونس المصغر 20-21
- نفس المصغر 13
- تزوج الجد عمر بويزار من كريمة عائلة بن غصام وكانت من كبريات العائلات التونسية.
- 3- الجزء الأول ص 17.
- هي مقبرة اليوم تقع بالعاصمة التونسية، بجنوبها ويسمونها التونسيون - الجلاز - وهي كمقبرة
العالية عندنا بالجزائر. والجلاز هو ولي صالح لدى التونسيين يُعرف بمحمد الجلاز وقبره عند مدخل
المقبرة.

أحمد توفيق المدني

- نشر بهذه الجريدة خمسة مقالات بالجزائر كان آخرها حل الجريدة وسجن المدني
- 4- حياة كفاح ج 1 - ص 81
- لم يحول إلى القضاء العسكري نتيجة لوساطة أحد أقربائه الذي أرسل مرسولا من الجزائر لهذا الغرض .
- 5- حياة كفاح - ج 1 - ص 145 - وهو ما يرجع أن هذا الجزء كتب سنة 1974 .
- نفس المصدر ص 329
- كان أميتها العام .
- شاركه فيها كل من محي الدين القليبي كاتباً، عثمان الكمال كاتباً، زين العابدين السوسني أميناً للمال .
- 6- محمد بلقراد - الشيخ أحمد توفيق المدني لمحات من حياته وأعماله - مجلة التاريخ - ص 9
- في غالبية كتابات الشيخ المدني يشير إلى أخوين له " الهادي - حسن " .
- عرض مقدم من فاطمة تازير - فضيلة تكور - المركز الوطني للدراسات التاريخية
- مجلة التاريخ ص ص 7 - 8
- 7- مجلة التاريخ - المركز الوطني للدراسات التاريخية - رقم 18 - السنة 1985 - ص 23 - 26 .
- فضل .
- 8- لا يزال الشيخ عبد الرحمن الجيلالي على قيد الحياة، أطال الله في عمره وأمدّه بالنسبة والعافية .
- 9- هي في الحقيقة رسالة بعث بها الميلي إلى المدني من الأنوار. ذكرها الميلي في كتاب "حياة كفاح" - الجزء الثاني ص 209 - 210 .
- مؤرخة بالأنوار يوم 1948/7/7 (هجري) وهي رسالة أولى تلقها رسائل عديدة من الأنوار حيث كان الميلي يصعد تأليفه لكتابه الشهير " تاريخ الجزائر القديم والحديث " .
- مجلة التاريخ - المركز الوطني للدراسات التاريخية 1985 - العدد 18 - ص 27 - 28 .
- 10- مجلة التاريخ - المركز الوطني للدراسات التاريخية سنة 1985 - العدد 18 ص ص 41 - 48 .
- ذكر في مقال مطول نشرته نفس المجلة تحت عنوان " الوثائق العثمانية وأهميتها عند الشيخ المرحوم التاريخي الجزائري "

- جريدة البصائر ونادي الترقى.

- محمد عثمان باشا

- كتاب الجزائر الشهير

- لقد بدأ في الكتابة والنضال منذ سنة 1914 وتوفي عام 1983

13- كان أيضا رئيس تحرير لجريدة الزهرة سنة 1924 - 1925

رافق الشيخ عبد العزيز الثعالبي في حزب الدستور الحر منذ 1920 وكانت له كتابات في هذا المجال والثعالبي جزائري أخرج كان له دور هام في تونس، وله مؤلفات كثيرة أهمها "تونس الشهيدة"

14- قال عنه الشيخ عبد الرحمن الجيلالي " ... تأليف انفراد فيه وحده بين جميع من سبقه من العلماء الباحثين حملة القلم العربي موضوع جليل خدم به وطنه بما لم يخدمه أحد غيره ممن تقدم ... " - مجلة التاريخ -

- حياة كفاح - الجزء الثاني ص 198.

- نفس المصدر ص 199

- نفس المصدر 200 - 201 - 203

15- طبع الجزء الأول عام 1976 والثاني عام 1977 والثالث عام 1982 .

16- "حياة كفاح" الجزء الثالث.

